العوامل الحجاجية في الشواهد القرآنية
" خطب أصحاب الكساء (عليهم السلام) أنموذجاً "

م. م. باسم شعلان خضير
أ.د. مسلم مالك بعيّر الأسدي
كلية العلوم الإسلامية/ جامعة كربلاء

Argumentative factors in the Quranic evidence "Sermons of the owners of Al-Kisa (PBUH) as a Model"

Asst lect. Basim Shaalan Khudair
Prof. Dr. Muslim Malik Baayer Al-Asadi
College of Islamic Sciences/University of Karbala

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن تقنيات العوامل الحجاجية في الشواهد القرآنية عند أصحاب الكساء (عليهم السلام) فيتتبع آليات توظيف أساليب لغوية في إطار حجاجي إقناعي فيسلط الضوء على حجاجية القصر وعاملية النفي الحجاجية عبر اختيار نماذج ومقاربتها ، وبيان تأثيرها في المتلقي ، ودفعه إلى تبني أنماط سلوكية محددة.

Abstract

This research aims to reveal the techniques of argumentative factors in the Qur'anic evidence for the owners of Al-Kisa' (peace be upon them). It traces the mechanisms of employing linguistic methods in the context of a persuasive argument. It sheds light on the argumentative of minors and the argumentative of negation by selecting models and comparing them, showing their impact on the recipient, and pushing him to adopt specific behavioral patterns.

المقدَّمة:

تُمثّلُ العوامل الحجاجية أبرزَ الوسائل التي يتعكّز عليها المتكلّم بغية التأثير في نفس المتلقي لغرض تحقيق الإقناع لغايةٍ يبتغيها.

ويتجلّى العوامل الحجاجي في إيضاح مقاصد الخطاب وغايته بواسطة الشواهد القرآنية في خطب أصحاب الكساء (عليهم السلام)؛ لكشف جانباً من جوانب النّص القرآني مقترناً بنصّ المعصوم (عليه السلام) ومتعانقاً معه، الأمر الذي يستدعي إنتاج معنى بمستوى عالٍ من التأثير والإقناع، بمعنى آخر شكّل هذا التآزر النّصي ظاهرة اقناعية ذات أهمية في ميدان الحجاج، فضلاً عن إنتاج معنى لإثارتين في آنٍ واحدٍ.

وانتظم البحث على مطالبين: الأوّل: عوامل القصر. والثّاني عوامل النفي. تلتها خاتمة عرض فيها لأبرز النتائج التي توصل إليها الباحث، ومن ثَمَّ قائمة المصادر والمراجع، وسبق ذلك كلّه بمقدَّمة سُرِدَ فيها هيكلية البحث، سالكاً في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

المطلب الأوّل: عوامل القصر

إن القصر في الاصطلاح هو ((تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص)).[1] ولعل القصر بالنفي والاستثناء هو أكثر عوامل الحجاج تداولاً وفاعلية فيما ينضوي تحت فاعلية القصر الحجاجية.

١- القصر بالنفي والاستثناء:

من الشواهد القرآنية التي نهضت هيكليتها على عاملية القصر بالنفي والاستثناء في خطب أصحاب الكساء اخترنا قوله تعالى من خطبة للزهراء عليها السلام: ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَّ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ)) [آل عمران:

١٤٤]، إذ جاءت الآية الكريمة متلاحمة مع سياق الخطبة الواردة فيه؛ تقول الزهراء عليها السلام: ((أتقولون مات محمد؟ فخطب جليل استوسع وهيه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة، عند مماته. فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله - جلّ ثناؤه - في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم، هِتافاً وصراخاً وتلاوة والحاناً، ولقبله ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حُكم فصل، وقضاء حتم، وما محمد إلّا رسول قد خلّت من قبله الرسل أفإن مات أو قتلَ انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين))[٢].

وتفسير قوله تعالى كما ذكر ابن كثير أنه لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل، نادى الشيطان أن محمداً قد قتل. فعاد ابن قميئة إلى المشركين يبشرهم أنه قد قتل محمداً. وفي الواقع كان قد ضرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فشجه في رأسه، فوقع الخبر من نفوس الناس موقعاً عظيماً، وأصابهم الوهن وتأخروا في القتال وفي ذلك نزل قوله تعالى: ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)) أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. وقال ابن أبي نجيح عن أبيه إن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو مدمى، وقال له: أشعرت يا فلان أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل؟ فأجابه الأنصاري: إن كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل قوله سبحانه: ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)) ثم قال الأنصاري منكراً على

من وهن: ((أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)) أي: عدتم القهقري، ((وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَّ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ)) أي: الذين أطاعوه ونافحوا عن دينه، واتبعوا خطر نبيه حياً وميتاً[٣].

لقد قامت الزهراء (عليها السلام) باستثمار الطاقة الحجاجية لعامل القصر بالنفي والاستثناء (ما.. إلا) عبر الاستشهاد بالآية الكريمة التي ينضوي تحتها هذا العامل الحجاجي، وشكّل قوام جسدها اللغوي والمعنوي. وهي بذلك تضفي بالضرورة استثمار الطاقة التأثيرية الاقناعية لعامل القصر أولاً، وللآية الكريمة برمتها ثانياً، وذلك بهدف إقناع المتلقي، ودفعه إلى تبنّي موقف محدّد بعد استثارة منطق المتلقي وعواطفه في آن واحد.

ولعلَّ المهمة الأبرز التي أداها العامل الحجاجي في هذا المقام هي حصر الإمكانات الحِجاجيّة التي تكون لقول حجاجي ما، وهذه المهمة أداها عامل القصر (ما.. إلا) في الآية الكريمة أعلاه التي تمّ استثمارها بوصفها شاهداً في السياق النصي المقصود بعينه للخطبة؛ إذ قام العامل الحجاجي بعملية تقييد لسلسلة الإمكانات الحجاجية، وحصرها في اتجاه معين مقصود بذاته، فقد حصر القول الحجاجي محدّدات (محمد صلى الله عليه وآله وسلم) في احتمال واحد من دون سواه وهو أنَّه رسول: ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ))؛ ولأنه رسول شأنه شأن من سبقه من الرسل، ترتب على هذه المقدمة الحجاجية المسلم بها حجج تفضي إلى نتيجة أولاها: ((فَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ))ثم الحجة: ((وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ))التي تفضي إلى نتيجة: ((فَلَن يَضُرَّ اللهَّ شَيْئاً))، ثم نتيجة: ((سَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ)).

وبناء عليه استطاع الحجاج

الذي نهض على عامل القصر بالنفي والاستثناء في الآية الكريمة أن ينفي كون محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً آخر غير رسول خلّت من قبله الرسل، إذ أدى هذا الحصر وظيفة إقناعية تأثيرية في المقام الأوّل، إذ قام العامل الحجاجي (ما.. إلا) بعملية توجيه القول الحجاجي باتجاه محدّد مقصود، وهذا ما تمّ توظيفه في إقناع المتلقي، والتأثير في سلوكه[٤]، ليذعن المتلقي بالمحصّلة، ويتّجه باتجاه سلوكيات معينّة، أراد له المتكلم - وهو هنا الزهراء (عليها السلام) - أن يصل إليها، وعمد الحجاج للوصول إليها في المقام الأوّل.

ومن خطب أصحاب الكساء التي استثمرت فيها شواهد قرآنية قامت على القصر بالنفي والاستثناء هناك - أيضاً - قوله تعالى من خطبة للإمام الحسن (عليه السلام): ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً)) [الشورى: ٢٣]. إذ جاءت الآية في سياق وظفت فيها بعناية، إذ يقول (عليه السلام): ((أنا ابن البشير النذير، أنا ابن السراج المنير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، إنا من بيت افترض الله تعالى مودّتهم في كتابه فقال عزَّ وجلَّ من قائل: ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً)، والحسنة مودّتنا أهل البيت))[٥].

وبناء على المتعارف عليه من وظائف عوامل الحجاج المتفّق عليها يمكننا القول إن الله عزّ وجلّ حيث أراد في الآية الكريمة الغاء تعددية الاستلزامات المرتبطة بعملية النفي التي تطالع القارئ بداية ((لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً))، ونقل المعنى من حالة التعميم المطلق الذي يحتمل سلسلة من الاستلزامات، وقائمة من

الاحتمالات يمكن اختيارها من على محور الاختيارات لإتمام الجملة في ذهن المخاطب فيما يتعلّق بالحقل الدلالي للأجر، نقل المعنى من حالة العمومية هذه إلى حالة من التخصيص، والتحديد، والتعيين التي تصاحب الاستثناء (إلا)، والذي سيجعل بدوره سائر الاحتمالات الممكنة قبل الاستثناء مرفوضة بعده، وجعل الاحتمال الوحيد محصوراً فيما سيأتي بعد أداة الاستثناء ((الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)).

وممّا يدعم صحة ما ذهبنا إليه في هذا المقام تفسير الآية الكريمة إذ يتردّد في كتب التفاسير ما كتبه ابن عباس حين سئل عن قوله عزّ وجلّ: ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)) وكان ردّه: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان واسط النسب في قريش؛ ليس بطناً من بطونهم إلّا وقد ولدوه فقال الله سبحانه: ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً)) أي: على ما أدعوكم إليه، ((إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى))أي: أن تودوني لقرابتي منكم وتحفظوني بها.[٦]

فالنتيجة الأولى لاستثمار هذا العامل الحجاجي كانت حصر الاستلزامان والنتائج في احتمال واحد لا غير هو هنا ((الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى))، وذلك عبر أسلوب تنضدت فيه التراكيب اللغوية بصورة متقنة عالية التفاعل مع العامل الحجاجي الذي هو هنا القصر بالنفي والاستثناء إذ شكّل عامل الحجاج هذا أساساً محورياً لهيكلية الآية الكريمة برمتها.

النتيجة الثانية كانت تقوية، ودعم لعملية التوجيه في الحجاج الذي قامت عليه الآية الكريمة، ممّا جعل ذهن القارئ يتوجه باتجاه واحد نحو نتيجة واحدة تحصر الإمكانات الحجاجية للقول الحجاجي فيها باحتمال واحد للأجر الذي يسأل عنه، وهو هنا المودّة في القربى من دون غيره

من إمكانات القول الحجاجي التي يقتضيها السياق.

تمّ استثمار طاقة هذا العامل الحجاجي بصورة متقنة ليست غريبة عن أسلوب الخطاب القرآني البتة؛ إذ توافرت للتعبير أو للقول الحجاجي كل من القوة، والعمق، والجمال في المعنى، تحقق ذلك عبر انزياحات لغوية عملت على هز أفق التوقع عند القارئ أو المتلقي؛ فبعد أن ضخ الجزء الأول من عامل القصر، وهو النفي طاقته في السياق، شكّل معها النفي بؤرة دلالية حملت معنى رفض سؤال أي أجر البتة، يأتي الجزء الآخر لعامل القصر، وهو الاستثناء الذي شكّل بدوره بؤرة دلالية حملت معنى استثناء أجر من مطلق النفي السابق، وبتفاعل البؤرتين، وتماهيهما معاً بثّ العامل الحجاجي بقوة معنى حصر الدلالة في احتمال، وإمكان واحد لا غير، ورفض سائر الأجور ما خلا: (مودّة القربى).

كانت البنى اللغوية بفضل العامل الحجاجي عالية الانسجام، إذ أدّت كل منها دورها، ووظيفتها المنوطة بها على مستوى الدلالة، وعلى مستوى الشكل، فكان القول الحجاجي لطيف الوقع في النفس، متوفراً على طاقة تأثيرية عالية، تمّ صبها في قالب لغوي حجاجي على صعيد الشكل، وعلى صعيد المضمون، هذه الطاقة، وهذه القوة في الأداء لم تكن لتتوافر للقول الحجاجي ضمن السياق النصي للآية من دون العامل الحجاجي بالقدر نفسه الذي حققه وجود العامل الحجاجي.

على هذا النحو قام العامل الحجاجي بتخفيض الاحتمالات، والاستلزامات، ودفعها باتجاه واحد إذ تمّ توزيع المعنى على كتلتين لغويتين رئيستين؛ الأولى تضمنّت النفي ((لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً))، والثانية تضمنّت الاستثناء التي وضحت القصد، وأكدته، وجاءت بعد ((إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي

الْقُرْبَى)).

ومن أساليب القصر التي تمتعت بطاقة حجاجية في الشواهد القرآنية الموظفة في خطب أصحاب الكساء هناك أيضاً:

١- القصر بإنّما:

تستحضر الزهراء (عليها السلام) في خطبتها الفدكية شواهد كثيرة من آي الذكر الحكيم ومن ذلك استحضارها شاهداً الآية الكريمة: ((كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ غَفُورٌ))[فاطر: ٢٨]، إذ تقول (عليها السلام): ((فاتّقوا اللهَ حقَّ تُقَاتِه ولا تموتنَّ إلّا وأنتم مسلمون، وأطيعوا اللهَ فيما أمرَكُمْ بهِ ونهاكم عنه، فإنّما يخشى اللهَ من عِبادِه العلماءُ))[٧].

فكثيراً ما توظف الزهراء عليها السلام آيات القرآن الكريم في كلامها، وهنا توظف الزهراء عليها السلام قوله تعالى: ((كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ غَفُورٌ))بغية تحقيق التلاحم بين السياق النصي والآية الكريمة وقيادة الوجهة الحجاجية باتجاه معين مقصود لذاته.

والجدير ذكره في هذا المقام أن الزهراء عليها السلام عملت على ربط الآية الكريمة بجسد الخطبة اللغوي، فألحقت بها تغييراً طفيفاً، يتمثّل في إضافة حرف الفاء؛ إذ اقتبست الزهراء عليها السلام الآية الكريمة، وجاءت بها من منبعها الأصل، وهو القرآن الكريم، ثم أضافت إليها حرف الفاء: (فإنّما يخشى اللهَ من عِبادِه العلماءُ)، ممّا كان له بالغ الأثر فيما يتعلّق بدعم الطاقة التأثيرية والتعبيرية للنص؛ إذ حقق هذا الربط وظائف عدة أهمها مضاعفة قوة الدلالة، وجعل الآية الكريمة بمثابة جسر يربط بين البنى اللغوية التي تموضعت قبلها، وتلك التي تموضعت بعدها من دون أن يشعر القارئ أو المتلقي بذلك العبور، وذلك لشدة تماهي الشاهد القرآني مع

السياق النصي، وتلاحمه معه إذ يعطف على الدلالة فيما سبق الآية من النص، ويمهد لما سيأتي بعدها في النص، فتلاحمت وتماهت مع سياق الخطبة النصي وكأنها جزء لا يتجزأ منه.

وتفسير الآية الكريمة: ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)): إن الآية الكريمة تحيل إلى إثبات فعل الخشية للعلماء وإلى نفيها عن غيرهم، كما تشير إلى نفي العلم عن غير أهل الخشية في الوقت عينه[٨].

وقيل: إن الخشية هنا استعارة والمقصود: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين عباده[٩].

إننا نعلم أن العامل الحجاجي يضطلع بوظيفة محورية تتمثّل في تقوية التوجّه نحو النتيجة.[١٠] ولعل مضمون الآية الكريمة الذي يضاعف قوة الحجاج في النص، ويقوي عملية توجيه الحجج انطلاقاً من المقدمات إلى النتيجة بصورة مباشرة تأتي من توظيف العامل الحجاجي (إنما) الذي منح السياق النصي الوارد فيه دينامية، نقل معها القول الحجاجي إلى رأس السلم الحجاجي مباشرة.

إن العوامل الحجاجية عامة تشكّل محركاً محورياً، هو في كنهه أحد المحركات التي يرتفع عليها التخاطب الحجاجي.[١١] وبناء على ذلك يمكننا القول: إن توظيف العامل الحجاجي (إنما) في الآية الكريمة نجح في رفع القول الحجاجي مباشر إلى النتيجة، وذلك بفعل ما يتمتّع به العامل الحجاجي من مميّزات وخصائص أهمها حصر استلزامات القول الحجاجية، وتقليص الاحتمالات، وجعلها محصورة في احتمال واحد من دون غيره.

لقد تمّ بفضل فاعلية العامل الحجاجي تقليص الاحتمالات الواسعة لحقل (عباد الله الذين يخشونه)؛ إذ

يترك التركيب الذي اختير بناؤه على هذا النحو من دون غيره لغاية إقناعية حجاجية، يترك قائمة مفتوحة من الاحتمالات الممكنة لعباد الله الذين يخشونه، يملؤها كل متلق تبعاً لخلفياته المعرفية والثقافية، ومرجعياته المتنوعّة، إلى احتمال واحد هو(العلماء) وذلك بفضل طاقة الحصر التي تمتع بها العامل (إنما) الذي بدوره أدى مهمة حجاجية ضاعفت القدرة التأثيرية الإقناعية للقول الحجاجي بفضل خصائص الحصر بوصفه عاملاً حجاجياً، والتي تمكنه من إحكام قبضته على الوجهة الحجاجية، وقيادتها بالاتجاه الذي يلائم الدلالة أو النتيجة الموكل إليه إيصال القارئ أو المتلقي إليها.

من الآيات الكريمات الموظفة في خطب أصحاب الكساء، والتي قامت على عاملية الحجاج لـ (إنما) نذكر أيضاً قوله تعالى من خطبة لخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه واله وسلم: ((إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ)) [التوبة: ٣٧].

وقد جاءت الآية الكريمة في انسجام تام مع سياق الخطبة؛ يقول عليه الصلاة والسلام: " أيّها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك ممّا تحقرون من أعمالكم أيها الناس ((إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ)). إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان". (١٢)

وتفسير الآية الكريمة كما جاء في تفسير الطبري: يقول تعالى ذكره: ليس النسيء إلا زيادة في الكفر. والنسيء هو مصدر نسأ أي زاد؛ فتقول: نسأ الله في أجلك بمعنى زاد الله في عمرك؛ فالنسيء هو كل زيادة في شيء، والزيادة الحادثة في ذلك الشيء لسبب ما. ومعنى قوله تعالى: غنما التأخير الذي يؤخره الكفار من شهور الحرم الأربعة، وجعلهم الحرام حلالاً والحلال حراماً، هو زيادة في كفرهم، وجحود الذين كفروا وأهل الشرك الله سبحانه وتعالى وكلامه المنزل في كتابه جلّ وعلا.

أي يضل الله جلّ وعلا بذلك النسيء المبتدع أهل الكفر والشرك. وقيل معناه: يزول عن محجة الله تعالى التي جعلها لعبادة سبيلاً إلى مرضاته الذين كفروا. وقيل المراد: يضل الذين كفروا الناس بذلك النسيء المبتدع.

يحصر العامل الحجاجي (إنما) استلزامات القول الحجاجي للآية الكريمة، ويقلص الإمكانات والاحتمالات التي تتفرع عن (ماهية النسيء)، وتتفتح حقولها الدلالية في ذهن القارئ إلى احتمال واحد تنحصر فيه الدلالة، وهو (زيادة في الكفر)؛ فالنسيء بعد انفتاحه بداية على حقول دلالية غنية بالاحتمالات (إنما النسيء)؛حيث تكون البنى اللغوية التالية للعبارة حاملة لسلسة من الإمكانات المتاحة التي تعرف النسيء، وتوضح ماهيته، يتقلص وينكمش إلى احتمال واحد من دون غيره، إذ تحمل تتمة القول، وبالاستناد إلى وجود العامل الحجاجي (إنما) الذي يبث طاقاته الحجاجية التأثيرية، ويمارس سلطته التوجيهية في تحديد الوجهة نحو غاية واحدة، ومدلول واحد لا غير (زيادة في الكفر).

ولا يقتصر دور العامل الحجاجي (إنما) على ذلك فقط، بل

يؤدي وظائف عدة أهمها مد السياق النصي للآية الكريمة، ومن ثم للسياق النصي في الخطبة الذي استند إلى الآية شاهداً بسيل من القوة تضاعف الدلالة، وتزيد فاعليتها، وقدرتها على التأثير في المتلقي، وإقناعه عبر استثارة انفعالاته، والالتفاف على أفق توقعاته، وهز كيانها، مما يؤدي وظيفة مضاعفة على صعيد الدلالة فيما يخص الحجاج والإقناع، وعلى صعيد الجمال المتأتي من المتعة المتولدة عن عمليات كسر جليد المألوف، وهدم جدار المتوقع، كل هذا من شأنه ضمان فاعلية طاقة العامل الحجاجي (إنما) الإقناعية، من جهة، وضمان أداء ثلة من المهام، تشكّل عملية إيصال مضمون الرسالة إلى المتلقي إحدى المهام المحورية، ويتمّ ذلك بالصورة الأمثل التي خطط لها المتكلم عند صبه المعاني في الصيغ والتراكيب اللغوية التي وقع عليها الاختيار من دون غيره.

٢- القصر بالتقديم والتأخير:

يشكل القصر بالتقديم والتأخير أحد أبرز طرائق القصر التي تتمتع بطاقة حجاجية، ويتردد استعمالها في الشواهد القرآنية المختارة في خطب أصحاب الكساء، ونذكر مثالاً الآية الكريمة من خطبة للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ((اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ))[سبأ: ١٣].

والآية افتتح بها الرسول الكريم محمد صلى الله عليه واله وسلم قوله: " فقرأ هذه الآية ((اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ))ثم قال صلى الله عليه واله وسلم: من أوتي ثلاثاً فقد أوتي مثل ما أوتى داود عليه السلام: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى".[١٣]

وقع التقديم والتأخير في قوله عزّ وجلّ: ((اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

إذ وقع النداء (آل داوود) بين الفعل (اعملوا) و مفعوله (شكراً)، فتأخر المفعول به والأصل أن يلي فعله، ويفترض بترتيب الجمل أن يكون كما يأتي: (اعملوا شكراً آل داوود)، أو(آل داوود اعملوا شكراً).

لقد حقق التقديم والتأخير الذي قام عليه بناء الآية الكريمة أغراضاً جمالية وحجاجية في آن؛ أما الجمال فقد تسنى لهذا الأسلوب نتيجة تقنية هز أفق التوقع، وإطالة مدة المتعة المتحصلة من إثارة مدركات القارئ، وانتباهه للقبض على المعنى، و إعادة تنضيد البنى اللغوية، ثم ربط هذه البنى اللغوية بروابطها الأصلية كما في أصل الوضع النحوي القاعدي، ثم إدراك الغاية الجمالية والدلالية من الروابط الجديدة التي انتظمت تحتها التراكيب أو البنى اللغوية.

أما الوظيفة الحجاجية أو الغرض الحجاجي الذي حققه أسلوب التقديم والتأخير فيتمثل في استثمار آلية زعزعة النظام النحوي الوضعي و النمطي للجملة العربية التي تقتضي ترتيباً محدداً للبنى اللغوية، ثم إعادة هيكلتها في صورة جديدة، وتحت شبكة علائقية جديدة، جعلت من أسلوب التقديم والتأخير ينضح بدلالة حجاجية بفعل إفادته معنى القصر، وبث طاقات هذا الأسلوب، وقدراته الحجاجية في السياق، ترتب عن ذلك بالضرورة تأدية ثلة من الوظائف أهمها التحكم باتجاه القول الحجاجي، وحصر احتمالاته وإمكاناته، ودفعها باتجاه واحد، لتأدية المدلول المقصود بعينه من دون سواه، وهو هنا تعيين القصود بالأمر الإلهي (اعملوا شكراً)، وحصره في دائرة دلالية واحدة لا غير هي هنا (آل داوود)، ممّا يجعل القول الحجاجي محصوراً في هذه الفئة (آل داوود) لا غيرها، يتمم المعنى، ويعطف عليه

تتمة الآية الكريمة (وقليل من عبادي الشكور).

يدعم ما ذهبنا إليه تفسير الآية الكريمة التي جاءت في سياق يوجه الخطاب إلى آل داوود؛ فالآية الكريمة تتمة لقوله سبحانه: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ)، إذ تشير(المحاريب) إلى الأبنية الرفيعة، والتماثيل هي ما يكون فيها من النقوش، و(جفان كالجواب) الجواب جمع جابية، وهي الحوض الكبير الذي يجبي الماء بمعنى يجمعه، و(قدور راسيات) أي ثابتات لا تنقل لكبرها.

في الآية الكريمة قصد الخطاب الإلهي بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الأبنية الملكية، وحال الحفان العظيمة، وما يقع في النفوس من الطعام الذي كان فيها. كما أشار الخطاب الإلهي إلى اشتغال داوود في آلات الحرب، و ذكر سليمان بالمساكن والمآكل في حالة السلم. وفي قوله سبحانه: ((اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)) يشير عزّ وجلّ إلى أن هذه الأمور كلها حالية وآنية لا يجدر بالمرء أن يشغل نفسه بها حدّ الاستغراق، وإنما يتوجب عليه أن يكثر من العمل الصالح الذي يكون شكراً؛لأن الشكر صالح. وفي قوله تعالى: ((وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)) إشارة إلى أن الشكر على النعم واجب بيد أنه لا يمكن أن يكون كما ينبغي؛ ذلك لأن الشكر بالتوفيق، وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر، وهو بتوفيق آخر، وفي المحصلة تبقى نعم الله سبحانه بعد الشكر خالية عن الشكر.[١٤]

وبذلك نجح القول الحجاجي بفضل قدرة أسلوب القصر الحجاجية الذي منح معناه أسلوب التقديم والتأخير إذ أدى هذا الأسلوب بدوره معنى الحصر والتخصيص؛ نجح في إفادة معنى الحصر وبالتالي الانتقال من حالة التعميم والإطلاق التي

تفتح الأفق لإمكانات واستلزامات القول الحجاجي إلى حالة التخصيص والحصر، بعد خفض الاحتمالات بفعل العامل الحجاجي المتمثّل في أسلوب التقديم والتأخير ((اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً))، لتنخفض الاحتمالات، وتنحصر الإمكانات في (آل داوود) من دون غيرهم.

كما تظافر في السياق معنى التخصيص الذي أفاده أسلوب التقديم والتأخير، ومعنى القصر الذي جاء بعد انتقال أسلوب التقديم والتأخير إلى مستوى دلالي آخر نقله إلى أسلوب قصر الذي بدوره شكّل عاملاً حجاجياً أفاد حصر الإمكانات، والاستلزامات للقول الحجاجي، وقيادة دفّة الحجاج باتجاه واحد مقصود، وذلك كلّه إلى جانب تقوية الدلالة، ومضاعفة المعنى، وتعميقه، ناهيك عن المهمة الجمالية المتأتية من متعة التفكيك والربط أثناء عملية القبض على المعنى، كل هذه المهام مجتمعة تمكّن العامل الحجاجي من تحقيقها في فضاء الخطبة النصي عامة، وسياق الآية الكريمة خاصة.

المطلب الثاني: عاملية النفي الحجاجية

أ- بالأداة ما:

تدخل ما النافية على الجملة الاسمية والفعلية، وتنفي (ما) الفعل الداخلة عليه، وعلى هذا ثمة اجماع من النحويين، وكثيراً ما تأتي (ما) وبعدها (إلا)، ويجوز تكرار (ما) في الجملة، ولا يجوز حذفها.(١٥)

اخترنا من توظيف النفي حجاجياً في خطب أصحاب الكساء إحدى الآيات الكريمات التي تمّ استحضارها شاهداً في خطبة للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي: ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [المائدة: ٦٧].

لنتأمل توظيف الآية الكريمة في سياق الخطبة؛ يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام:" لأنه قد أعلمني أنّي إنْ لم ابلّغ ما أنزل إليّ في حقّ عليّ فما بلغتُ رسالته، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة من الناسِ وهو الله الكافي الكريم فأوحي إليّ:((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) معاشر الناس ما قصّرتُ في تبليغ ما أنزل الله تعالى إليّ".(١٦)

إن النفي في هذه الآية الكريمة المختارة شاهداً في خطبة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد غلّف بأسلوب حجاجي، ليؤدي وظائف متعددة، لعل أبرزها قيادة دفة الوجهة الحجاجية؛ إذ كانت الغاية من الخطاب الإلهي في الآية الكريمة إقناع المخاطب، وحمله على اتخاذ موقف محدد، ومقصود بعينه، هو هنا (تبليغ ما أنزل إليه من ربه)، لجأ الخطاب الإلهي إلى تغيير اتجاه القول الحجاجي الثابت في ذهن المتلقي الذي هو هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله في الضفة المقابلة للدلالة من خلال استثمار تقنيات الحجاج، وهو هنا عاملية النفي الحجاجية.

لقد قام الحجاج في خطاب الآية الكريمة على مقدمات حجاجية، قادت في نهاية المطاف إلى نتائج حجاجية، حققت غرضاً إقناعياً تأثيرياً بفضل فاعلية الخصائص الحجاجية للعوامل الحجاجية عامة، والنفي منه خاصة؛ إذ استطاع النفي في هذا المقام تحويل اتجاه الثابت المترسخ عند المخاطب من أنه قد بلّغ رسالة ربّه الموكلة إليه مهمة إيصالها إلى الناس أجمعين، وزعزعة أركانه بفضل فاعلية النفي الحجاجية:

الرسول بلّغ ما أنزل إليه من ربّه: مقدمة١.

الرسول بلّغ رسالتَه: نتيجة ١.

بعد دخول النفي:

الرسول لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه (لم يفعل): مقدمة ٢.

الرسول لم يبلّغ رسالته: نتيجة ٢.

وتبعاً للسياق الذي وظفت فيه الآية في الخطبة يكون القول الحجاجي كما يأتي:

الرسول أبلغ الناس أن الولاية بعده للإمام علي بن أبي طالب، ولبنيه من بعده (الحسن والحسين عليهما السلام) = الرسول بلّغ ما أنزل إليه من ربّه ⟸ الرسول بلغ رسالته.

بعد دخول النفي:

الرسول لم يبلغ الناس أن الولاية بعده لإمام علي بن أبي طالب، ولبنيه من بعده (الحسن والحسين عليهما السلام) = الرسول لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه ⟸ الرسول لم يبلغ رسالته.

ونضرب مثالاً آخر على فاعلية النفي الحجاجية في الشواهد القرآنية الموظفة في خطب أصحاب الكساء نذكر أيضاً الآية الكريمة الموظفة في خطبة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ((وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ))[سبأ: ٣٥].

إن الغاية الرئيسة التي ينشدها المتكلم عامة من أسلوب النفي غالباً ما تكون حجاجية، إن لم تكن كذلك دائماً وذلك أنّ " الفكر السالب لا يكون في الكلام إلا إذا كان الأمر متعلّقاً بمواجهة الآخرين أي حين يكون الأمر على الحجاج".[١٧]

لعبت أداة النفي (ما) في هذا المقام أيضاً دوراً حجاجياً؛ فقد نسخ النفي ما قد تمّ ترسيخه في ذهن المخاطب، وهو هنا المترفين المكذبين من أن كثرة المال والبنين دليل على أنهم لن يعذبوا. وبتتمة المعنى، والعطف عليه يتكشف للمتلقي بعد استحضار آيات شديدة الاقتران بالآية المقتطعة من سياقها كقوله عزّ وجلّ: ((لاَ

تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)) [التوبة: ٥٥]، إذ اكتفى عليه السلام بهذا الجزء استناداً إلى يقين معرفة المخاطب بتتمة الآية، من جهة، ولاقتران هذا الجزء بسياقات نصية مماثلة، واستمرار إحالته إليها، من جهة أخرى.

ولتحقيق الغاية الحجاجية عمد الخطاب القرآني إلى تنضيد المقدمات الحجاجية التي ستفضي إلى النتائج الحجاجية المترتبة عليها، بهدف إقناع المخاطب من خلال فاعلية الحجاج بأداة النفي (ما) بنتيجة يصل إليها القارئ بعد رحلة ممتعة وراء الكشف عن المعنى المقصود، وملء الفراغات وإعادة تنضيد العلاقات التي تربط البنى اللغوية في الآية الكريمة، واستحضار المسكوت عنه والمضمر من المعنى، بعد استحضار الآيات المقترنة بها، والسياق الواردة فيه، وهو هنا السخرية من ظن المكذبين المترفين بفوزهم بمحبّة الله عزّ وجلّ، ونجاتهم من العذاب، لكون الله عزّ وجلّ قد منحهم الوفرة في المال والبنين في هذه الدنيا، والحقيقة هي أن الله عزّ وجلّ إنما سيعذبهم بها، وتزهق أنفسهم وهم كافرون.

وبناء على حقيقة أنّ "الحِجاج غايته التأثير العمليّ، الذي يمهّد له التأثير الذهنيّ".[١٨] لا نجانب الصواب إن قلنا إن القول الحجاجي في الآية الكريمة قد وظف بهدف التمهيد الذهني الذي سيليه بعد عملية الإقناع التي ستوفرها فاعلية النفي الحجاجية تبني الموقف المراد من قبل المخاطب.

ترتبت المقدمات والنتائج الحجاجية في القول الحجاجي الذي قامت عليه الآية كما يأتي:

- نحن أكثر أموالاً وأولاداً: مقدمة.
- مانحن بمعذبين: نتيجة.

يتولّد عن هذا القول الحجاجي

قول آخر، بعد استحضار الآيات الكريمات ذات الصلة، والتي تستمر الآية الكريمة في الإحالة إليها:

- فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم: مقدمة.

- إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا: نتيجة١.

- وتزهق أنفسهم وهم كافرون: نتيجة٢.

يعمل الحجاج على التجسير بين القولين الحجاجيين الظاهر والمسكوت عنه أو المضمر، ليعاد تنضيد المقدمات والنتائج، و الربط بين النفي في القولين الحجاجيين الظاهر منه والمضمر، ليصل القارئ أو المتلقي إلى نتيجة عليا كما يأتي:

نحن أكثر أموالاً وأولاداً مانحن بمعذبين.

يقلب النفي الوجهة الحجاجية، لتنقلب الحجة بنتيجتها السابقة على عقبها، وتنتقل إلى الضفة المقابلة:

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون.

وتصبح خلاصة القول الحجاجي نتيجة غير معلن عنها، وتفهم من السياق وقرائنه:

نحن أكثر أموالاً وأولاداً مانحن بمعذبين

=

المترفون المكذبون تزهق أنفسهم وهم كافرون.

على هذا النحو تمّ استثمار عاملية النفي بالأداة ما في الشواهد القرآنية المختارة في خطب أصحاب الكساء.

ب- الأداة بـ لا:

إن النفي بالأداة (لا) لا يقل فاعلية حجاجية عنه بالأداة (ما)،ولتوضيح ذلك اخترنا بعض الآيات الكريمات المستشهد بها في خطب أصحاب الكساء، ومنها آية كريمة استشهد بها الإمام الحسن عليه

السلام في إحدى خطبه: ((لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ))[الأنعام: ١٠٣]

إذ تماهت الآية مع السياق النصي الذي وردت فيه؛ لنتأمل قوله عليه السلام: " يا أيها الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم يُضاهنون قول الذين كفروا من أهل الكتاب بل هو الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير".(١٩)

لقد بني الجسد اللغوي للآية الكريمة على النفي الذي كان عاملاً حجاجياً بامتياز؛ إذ أدى النفي مهام متعددة لا تنحصر فقط في جانب كونه عاملاً حجاجياً، يقوم بعمليات ربط، وتجسير بين المقدمة والنتيجة، بل تجاوز ذلك إلى أداء مهمة أكثر تعقيداً، وفاعلية، وتأثيراً تتمثّل في توجيه القول الحجاجي، من جهة، وحصر الإمكانات لهذا القول الحجاجي، وجعلها في اتجاه واحد، واحتمال واحد من دون سواه، من جهة أخرى:

لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ: مقدمة.

يُدرِكُ الأَبصارَ: مقدمة.

هو اللطيف الخبير: نتيجة.

لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ + يُدرِكُ الأَبصارَ هو اللطيف الخبير.

إن فاعلية النفي بوصفه عاملاً حجاجياً تمتع هنا بخصائص العوامل الحجاجية و منها الدينامية قد منحت القول الحجاجي فرصة التحرك باتجاه النتيجة الحجاجية التي ستؤتي أكلها في عمليات الإقناع والتأثير في المتلقي.

وهذه الدينامية تأتت لعامل النفي الحجاجي؛لأن العوامل الحجاجية عامة تمثّل محركاً محورياً من جملة المحركات التي تقوم عليها عملية التخاطب.(٢٠)

وبذلك قام الحجاج بإثبات حقيقة أنه عزّ وجلّ (يدرك الأبصار)،

ونفي هذه الخصيصة عن غيره، وجعلها محصورة فيه بفضل فاعلية النفي الحجاجية في هذا المقام، فسلبت قدرة الإبصار على إدراكه عزّ وجلّ، وجعل فاعلية الإدراك مخصوصة به عزّ وجلّ، بتعبير آخر تحويل اتجاه المدلول بفضل الحجاج المتكئ على النفي باتجاه حصر المعنى وتخصيصه فيه سبحانه وتعالى فيكون إدراك الأبصار من جهته جلّ وعلاّ، في المقابل لا تستطيع الأبصار مبادلته هذا الإدراك، و لا تستطيع إدراكه البتة، وبناء على هذه المقدمات الحجاجية يفضي الحجاج إلى ترسيخ نتيجة عليا هي أنه عزّ وجلّ لطيف خبير، خبرته تتأتى من سعة دائرة الإدراك لكل شيء ممّا يعني بالضرورة أن سائر الأشياء تقع تحت تصرفه، وتجري بما خططه لها، انطلاقاً من أن الأعلى يملك احتواء الأدنى، والسيطرة عليه.

ومن توظيف فاعلية عاملية النفي بالأداة (لا) الحجاجية اخترنا أيضاً قوله تعالى: ((إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)) [طه: ٧٤] الذي ورد شاهداً في خطبة للرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم.

وقد وظفت الآية الكريمة في الخطبة لغاية حجاجية، تأثيرية قصدها النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: " خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى على هذه الآية: ((إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى))، فقال: أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولايحزنون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تمسهم، ثم يقوم الشفعاء فيجعلون ضبائر فيؤتى بهم نهراً يقال له الحياة – الحيوان– فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل".[٢١]

قامت الآية الكريمة على تراتب الحجج، وتواليها، إذ تسلم فيها الحجة

القوة الحجاجية إلى أختها في ارتفاع باتجاه النتيجة النهائية:

أتى ربه مجرماً: مقدمة.

له جهنم: نتيجة١.

لا يموت فيها ولا يحيى: نتيجة ٢.

أتى ربه مجرماً له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى.

لقد تمّ تفعيل حجاجية عامل النفي بالأداة (لا) في القول الحجاجي الذي شكّل أساس الآية الكريمة، وأفضت المقدمة الحجاجية إلى نتيجة جزئية، أسلمت الحجاج إلى نتيجة عليا، هي ثمرة القول الحجاجي.

إن الآية الكريمة قد غلفت بأسلوب حجاجي لغايات حجاجية عديدة حققها في سياق الآية النصي بداية، ثم صبت في سياق الخطبة الذي وظفت فيه الآية الكريمة تالياً، وهي الغاية المحورية من الاستشهاد بالآية بالدرجة الأولى.

إن فاعلية عامل النفي الحجاجية في السياق النصي للآية الكريمة الذي ينعكس في مرآة السياق النصي للخطبة، استحضرت معها خصائص العامل الحجاجي الدينامية والإقناعية التأثيرية، وصبتها في فضاء النص، والهدف من ذلك في المقام الأول هو تأثيري بحت، يصبح معه الحجاج غاية، ووسيلة في آن، تسعى إلى إقحام المتلقي في دائرة الإقناع التي ستؤدي بدورها إلى الامتثال إلى مضمون الحجاج الدلالي المعد قبلاً، والمستهدف بعينه من قبل المتكلم.

وبناء عليه ستكون وظيفة العوامل الحجاجية تأثيرية في المقام الأول؛ إذ تصبح الوظيفة التأثيرية أساسيّة ومحورية، فيما تتقهقهر الوظيفة الإخباريّة، وتسقط في الهامش، ممّا يجعل منها مهمة ثانوية في مثل هذه السياقات النصية.[٢٢]

وغاية الحجاج المتولّد في الآية الكريمة هي دفع المتلقي إلى التفكير

ملياً في أعماله، وما سيحصده جراء هذه الأعمال، بعد توضيح نتيجة الإجرام والكفر التي هي جهنم مع خلود في عذابها وتيهها، لا يعرف فيها المجرم إن كان ميتاً أم حياً.

إن الطاقة الحجاجية لعامل النفي بالأداة (لا) التي وظفت ببراعة قلبت اتجاه الثابت من ظن المخاطب، وهو هنا (من اتى ربه مجرماً)، إذ ظن أنه وإن انتهى إلى جهنم مصيره في نهاية المطاف أن يموت أو يحيا، يأتي النفي ليهدم هذا الثابت، ويدخل المخاطب في حالة من الدهشة والحيرة، تتأتى من محاولته تصور وضعه وهو في جهنم (اذ لا يموت ولا يحيى)، وطبيعة العذاب الذي ينتظره، كل ذلك من شأنه التأثير المخاطب، واستثارة انفعالاته وعواطفه، ثم إقناعه، ودفعه إلى هجر سلوكه القديم إلى آخر جديد يقي نفسه به من أهوال هذا المصير.

ج- الأداة بـ (ليس):

ليس واحدة من أدوات النفي تدخل على الجملتين الاسمية والفعلية، وفي تعيين اسميتها من حرفيتها خلاف بين النحويين.[٢٣] و تعرف الأداة ليس بأنها " كلمة دالة على نفي الحال وتنفي غيره بالقرينة"[٢٤]

ومن استثمار فاعلية النفي بالأداة (ليس) في الشواهد القرآنية الموظفة في خطب أصحاب الكساء اخترنا قوله تعالى: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ))[الشورى: ١١]، وقد وردت في خطبة للإمام الحسين عليه السلام.

يقول عليه السلام: " يا أيها الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم يُضاهون قول الذين كفروا من أهل الكتاب بل هو الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير".[٢٥]

لقد لعب النفي بالأداة (ليس)

في هذا المقام دوراً حجاجياً، استطاع فيه قلب النتيجة المتأتية من تنضيد البنيات اللغوية الداخلة في نسيج الآية الكريمة أفقياً في حالة الإثبات، وهي نتيجة غير مصرح بها هنا، بل تفهم من السياق:

ثمة شيء مثيل له: مقدمة.

اشتراك بعض الأشياء معه في الصفات: نتيجة ١.

فقدان التفرد الذي بنيت عليه الوحدانية في الألوهية: نتيجة ٢.

وهذا ما ستكون عليه الوجهة الحجاجية في حال غياب (ليس)، وفاعلية النفي الحجاجية عن القول الحجاجي للآية الكريمة:

ليس كمثله شيء + غياب ليس ثمة شيء كمثله.

ثمة شيء كمثله اشتراك بعض الأشياء معه في الصفات فقدان التفرد الذي بنيت عليه الوحدانية في الألوهية.

بيد أن دخول (ليس) على المقدمة الحجاجية (ثمة شيء كمثله) قد قلب النتيجة من خلال عملية تكذيب للإثبات قلبته إلى النقيض منه بفعل النفي، ليصبح القول الحجاجي ليس كمثله شئ الذي سيترتب عنه بالضرورة نتيجة مضادة للنتيجة المتمخضة عن الإثبات:

ليس كمثله شيء ليس هناك أي شيء يشترك معه في الصفات التفرد والوحدانية.

إن نهوض البنيات اللغوية على عاملية النفي كان في هذا السياق له أغراض ذات طابع حجاجي منها حصر الاحتمالات، ونفي إمكانية تعددها، وتوجيهها نحو نتيجة واحدة من دون غيرها، هي هنا تفرد الله عزّ وجلّ، وعدم وجود أي شريك له على الإطلاق.

وبذلك تراكم المعنى، وتمّ تكثيفه في عبارة ذات طابع حجاجي، هدفها المحوري هو التأثير في المخاطب،

وحمله على الإقتناع بمضمون الخطاب، ودفعه بالتالي إلى تبني سلوكيات معينّة، تتمخض عنها عملية الإقناع والتأثر.

فليست الغاية من قوله: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))محصورة في نطاق الوظيفة الإخبارية وحسب، بل تجاوزتها، وتنحت هذه الوظيفة الإخبارية إلى الهامش لتتمحور مكانها الوظيفة الحجاجية المتجهة نحو تحقيق هدف إقناعي تأثيري، بفضل طاقة العامل الحجاجي، وهو هنا النفي ب (ليس)، وقدراته التوجيهية؛ وعليه استطاع عامل النفي بفعل طاقته الحجاجية حصر إمكانات القول الحجاجي واستلزاماته، و كذلك الاحتمالات التي كان يمكن لها أن تكون، وجعل ذلك كله محصوراً في احتمال واحد وحسب.

في الواقع إن كل سياق تخاطبي يعضد أو يفند أوضاع سابقة، ويتطلع إلى إرساء دعائم منظور جديد ومختلف، أو يسعى إلى إعادة النظر في المسلمات بغرض توجيهها وجهة محددة ومخصوصة؛ فاللغة بفعل طبيعتها تضع كل ملفوظ موضع سؤال إزاء ما سبقه، ليصبح حلقة داخل سلسلة كلامية، يولد ضمن عالم خطابي موجود مسبقاً.[٢٦]

وبما أن الآية الكريمة في حدّ ذاتها خطاب وضع ضمن خطاب آخر، هو نص الخطبة، يتحتم أن ثمة سياق تخاطبي غرضه -كما هو موضح أعلاه - إرساء دعائم منظور مختلف، هو هنا يتعلّق بمفهوم التوحيد الذي يقتضي تفرد الإله، وسموه فوق الموجودات كلها.

لقد ضاعف استحضار الآية في الخطبة القوة الحجاجية لسياقها النصي، بفضل قدسية القرآن الكريم، وتفرد مكانته في نفس المتلقي، ولكونه مرجعية

مشتركة لدى المتكلم والمخاطب.

الخاتمة:

في ضوء ما سبق توصّل البحث إلى نتائج عديدة ونوجز أهمها بالآتي:

١- تمَّ استثمار طاقة العامل الحجاجي بصورة متقنة، إذ توافرت فيه كلٌّ من القوّة والعمق والجمال في المعنى، وتحقق ذلك بانزياحات لغوية عملت على هزِّ أفق التوقع لدى المتلقي.

٢- حقق التقديم والتأخير أغراضاً جماليةً وحجاجيةً باستعمال آلية زعزعة النظام النحوي الوضعي والنمطي للجملة العربية التي تقتضي نسقاً محدَّداً للبنى اللغوية، ثم إعادة هيكليتها بصورة جديدة، تفضي بدلالة حجاجية أفادته معنى القصر.

٣- أنَّ فاعلية عامل النّفي الحجاجية تمظهرت في مرآة السياق النّصي للخطبة مستحضرةً معها خصائص العامل الحجاجي الدينامية والاقناعية التأثيرية لتصبها في فضاء النّص.

٤- تماهى الشاهد القرآني مع السياقات النصية للخطبة التي وظّف فيها، إذ تموضع ما يوائم السياق ليضاعف التأثر في المتلقي، والقدرة على استمالته.

الهوامش:

١- علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة: ٢١٧.

٢- خطبة فدك: ١٠٧- ١١٠.

٣- ينظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير: ٢/ ١٢٩.

٤- ينظر عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية:٢٥٠.

٥- السيد مصطفى الموسوي، الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (ع): ١٦.

٦- ينظر: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ١٣/ ١٤٥.

٧- محمد باقر المجلسي، الزهراء وخطبة فدك شرح الخطبة الفدكية: ٧٣.

٨- ابن رجب الحنبلي، روائع التفسير - تفسير ابن رجب: ٢/ ١٠٥.

٩- ينظر: محمد بن جرير القرطبي، تفسير القرطبي: ٤٣٧.

١٠- ينظر: عز الدين الناصح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية: ٣٥.

١١- ينظر: المرجع السابق: ١٧.

١٢- خطب الرسول: ١٤٥.

١٣- خطب الرسول:١٢٠.

١٤- ينظر فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب التفسير الكبير:٢١٦.

١٥- ينظر: سيبويه، الكتاب: ١/ ١١٦.

١٦- محمد باقر الأنصاري، خطبة الغدير النص الكامل: ٣٣.

١٧- عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه:٣٢٠.

١٨- المصدر نفسه: ٣٠٣.

١٩- علي الفتلاوي، ومضات السبط البعد العقائدي الأخلاقي في خطب الإمام الحسين: ١/ ١١.

٢٠- ينظر: عز الدين الناصح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية: ١٧.

٢١- خطب الرسول: ١١٩-١٢٠.

٢٢- ينظر: أبو بكر العزاوي، الحِجاج في اللغة:٤٢.

٢٣- ينظر: أحمد ماهر البقري، أساليب النفي في القرآن الكريم: ٨٧.

٢٤- ابن هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١/ ٤٨٠.

٢٥- علي الفتلاوي، ومضات السبط:١١.

٢٦- ينظر: أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة: ١٤.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم .

١- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية،دار نهى، مكتبة علاء الدين للتوزيع والنشر،صفاقس ت تونس، ٢٠١١م،ط.

٢- محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م،ط١.

٣- أبو بكر العزاوي، الحِجاج في اللغة، دار الأحمدية، المغرب، ٢٠٠٦م، ط١.

٤- أبو بكر العزاوي، الحِجاج في اللغة، دار الأحمدية، المغرب، ٢٠٠٦م، ط١.

٥- عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحِجاج)، ضمن: الحِجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠١٠م، ط١.

٦- علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، مكتبة البشرى، لبنان، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٧- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تفسير ابن كثير المحقق: محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٤١٩ هـ.

٨- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان، ٢٠٠٤م.

٩- السيد مصطفى الموسوي، الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (ع)، تحقيق ومراجعة وتعليق: السيد مرتضى الرضوي، دار المعلم للطباعة، ردمك، طهران، ١٩٧٥ - ١٣٩٥هـ.

١٠- جلال الدين السيوطي،الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر،بيروت.

١١- محمد باقر المجلسي، الزهراء وخطبة فدك-شرح الخطبة الفدكية، علق عليه وأكمله: محمد تقي شريعت مداري، شبكة الفكر - دار كولستان كوثر للنشر، طهران، ٢٠٠٣م، ط١.

١٢- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغداد ي الدمشقي الحنبلي، روائع التفسير - تفسير ابن رجب، جمع وترتيب: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢-٢٠٠١.

١٣- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث الدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ج١، د.ت، د.ط، .

١٤- فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٥- عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو البشر الملقب سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م،.

١٦- محمد باقر الأنصاري، خطبة الغدير النص الكامل، شبكة الفكر.

١٧- عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن أهم نظريات الحِجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،.

١٨- علي الفتلاوي، ومضات السبط البعد العقائدي الأخلاقي في خطب الإمام الحسين، ج١، مكتبة مؤمن قريش، إصدار قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة وحدة الدراسات التخصصية في الإمام الحسين، ١٤٢٣هـ - ٢٠١٢م.

١٩- أحمد ماهر البقري، أساليب النفي

في القرآن الكريم، دار المعارف، مصر، ١٩٩٤م.

٢٠- ابن هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: حنا فاخوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ط١.

٢١- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ٢٠١١م-٢٠١٢م، ط١.